النهضة الدستورية

وسياسة العثمانيين في الديار المصرية

وهي خطبة خطابها لمصدنا الدكتور فارس نمر في ٢٢ يناير بدعوة من جمعية الاتحاد والاحسان السورية العثمانية في حفلة اقامتها حين اجتماع جمعيتها العمومية . وقد استهل خطبته بكلام موجز عن الجمعية نذكر خلاصته بعد الفراغ من نشر الخطبة

ذهب العلماء والفلاسفة من قديم الزمان الى ان التغيير في الكون سنّة الله في خلقه ويذهب العلماء والفلاسفة الآن ان التغير اساس النشوء والارتقاء في الجمادات والاحياء . من منكم لم يقرأ او لم يسمع الرأي المشهور وهو ان النظام الشمسي اي شمسنا والكواكب التابعة لها وارضنا من جملتها كانت سديماً لطيفاً منتشراً في الفضاء انتشار الدخان ثم تغير شيئاً فشيئاً على مر الاحقاب والازمان حتى تحول الى شمس وكواكب سيارة تدور حولها واقمار تدور حول السيارات

من منكم لم يسمع ان الكواكب الاخرى الثابتة ليست الاّ شموساً كشمسنا وانها تكونت معها بدور حولها او ما يمكن ان يكون دائراً حولها من الكواكب كما تكونت شمسنا وارضنا والسيارات الاخرى الدائرة حول شمسنا

من منكم لم يقرأ او لم يسمع ان ارضنا هذه بعد ما كانت غازاً حامياً صارت شبه بحر نار متقدة تتلاطم فيه امواجها المتأججة ثم جمد منها ما جمد وظهر عليها الحي بعد الجماد من نبات وحيوان

من منكم لم يقرأ او لم يسمع حتى الآن ان هذه الاحياء ارتقت من ادنى رتبة الى اعلى ما شاهد من المراتب الحية حتى توجها كلها الانسان وان هذا الانسان انتظمت افرادهُ في عائلات والعائلات في بطون وقبائل وشعوب وامم تجمع الشعوب كما تجمع امتنا العثمانية شعوبها المختلفة . وان الامم اندرجت في هيئة اجتماعية غير منها الشئون الشرقية والغربية

كل هذا تعلمونهُ لان مجلاتنا وصحفنا تعرضهُ عليكم منذ اعوام عديدة والكتب والمؤلفات التي تطبع في عصرنا فما تخلو من اشارة اليهِ او كلام عليهِ

على ان التغيير الذي يهمنا الآن هو التغيير الفاعلي الناشئ عن مساعي الانسان وخصوصاً بعد ارتقاء هيئتهِ الاجتماعية فانهُ تغيير تزداد حركتهُ قوة وسرعة على مرور الاعوام

حتى ان مقدار ما يتم منهُ في زمان اليوم في عام واحد لم يكن يتم في زمان آبائنا في عشرة اعوام وما كان يتم في زمانهم في عشرة لم يكن يتم في زمان آبائهم في عشرين . تأملوا التغير الهائل الذي تمَّ في امر الانتقال والاتصال بعد امتلاكنا ناصية البخار والكهربائية وامتطاء عقرنا صهوات امواج الماء والهواء والاثير

مثل مثة عام لم يكن اجدادنا يعرفون غير الشراع واسطة للانتقال في السفن بحراً وغير الدواب والاتعاب ونحوها واسطة للانتقال برّاً فكان آباؤنا منذ ثمانين عاماً اذا اراد الواحد منهم ان يسافر من بلده في سورية الى هذه المدينة في الديار المصرية يتأهب للسفر الايام الكثيرة ويودع الاهل والخلان كأنهُ عازم على سفر طويل الى بلاد في اقصى المسكونة — على فراق لا يرى بعدهُ الاحبَّة والاوطان . ونحن نسافر الآن من هنا الى بيروت في يوم من الزمان

بل كان عزيز مصر يكل ما لديهِ من وسائط السرعة والراحة في الانتقال وما يعتلي من الضوامر التي تسابق الاطيار يتأهب للسفر من القاهرة الى هذه المدينة تأهب من يسافر منا اليوم الى اوربا . ونحن نركب الآن القطر من القاهرة الظهر فنكون هنا في اقل من ساعة ونصف ونزور ونزار ونحضر الولائم والاجتماعات ونخطب الخطب ونعود الى العاصمة قبل الغروب

وقس على هذا التغير العظيم السريع ما هو اعظم واسرع كانتقال الاخبار من اقصاء الكرة الارضية الى اقصائها في لحظة من الزمان وكحفظنا اصوات اعظم المغنين والمنشدين والخطباء الى ما شاء الله من الادهار وكحفظنا صور الناس في حركاتهم ومكناتهم على تمادي الاحقاب وكتسخيرنا الاثير لنقل اخبارنا بلا اسلاك من مكان الى مكان ولو في قلب البحار واقرب الكل عهداً ما تمَّ لنا في هذا القرن وهو تحقيق خرافة بساط الريح التي تناقلها الابناء عن الآباء الى هذا الزمان

ففي الشهر المقبل سترون بعيونكم احدث معجزة عصرية في ارض احدث المعجزات المصرية . اعني بذلك مهرجان الطيران في مصر الجديدة التي كانت في اول هذا القرن مفازة مقفرة مجدبة لا انيس بها فاصبحت في اقل من خمسة اعوام مدينة من ابدع ما بنى الانسان بلغت الغاية في كمال الهندسة العربية كما بلغت الغاية في كمال الرزدقة الافرنجية . أليس طيران الانسان في مدينة من ابدع مدن الزمان بناها ذوو الهمم واهل الفن وسط الصحراء في الف يوم وليلة باغرب من بساط الريح يطير من مدينة بناها الجن في حكايات الف ليلة وليلة : تصديق

على ان معظم الفضل في هذا التغيير العظيم السريع المنتج للتقدم العظيم السريع اصبح واسناده في زماننا هذا للامم الغربية لا للامم الشرقية

الامم الشرقية توشك اليوم ان تلزم حالة الجمود ولا لتغير التغير الذي يؤدي بها الى الارتقاء والتقدم . اسمع كثيرين يقولون انها اصبحت امماً منتسة عن سواها ومقلدة لغيرها ويعيرونها بذلك لانهم يطلبون منها اكثر منهُ اما انا فاكتفي الآن بما لا يكتفي معيروها به ولا اطمع منها باكثر منهُ

ولكني لا اراها تقلد او تقتبس الاَّ اذا اضطرها الى ذلك بحر التمدن الاوربي الطامي فنحن لم نقلد الاوربيين في احوال معاشنا الاَّ لما غشينا تمدنهم واحاط بنا من كل جهة ولم يبقَ لنا سبيلاً الاَّ مجاراة اهله والتشبه بهم . هذا هو سر شرائنا البضائع الافرنجية عوضاً عن البضائع الوطنية . هذا سر محاكاتنا للاوربيين في المأكل والملبس والمسكن والانتقال والاخذ والعطاء وسائر احوال المعاش . ولما غمرنا بحر تمدنهم الطامي بمدارسهِ وكتبهِ وعلومهِ ومعارفهِ واهل العلم والتعليم منهم اضطررنا الى التعلم رغماً عنا كما يشهد بذلك اكراه محمد علي لابناء مصر على الدخول الى المدارس . ولولا سيل التمدن الاوربي الجارف الذي لم يبقِ لنا حيلة ولا مناصاً لبقينا اليوم حيث كنا في ذلك الحين

هل ينكر المنصف المعترف بالحق منا اننا حيث لم يغمرنا التمدن الاوربي وحيث لم تضطرنا مداخلة الاوربيين بقينا ساكنين جامدين حتى اننا نوشك ان نكون الآن حيث كنا منذ مئة عام ان لم اقل حيث كنا منذ ثلاث من الاعوام . هذا كلام يؤلمني قولهُ ويؤلمكم سماعهُ ولكنهُ الحق الذي لا ريب فيهِ والحق اولى ان يذاع ويجمع ولو كان يؤلم ويصدع

وهل في هذا الحق ريب ونحن اذا راجعنا حالتنا السياسية والادارية الملتين ليس للافرنج مصلحة ولا مأرب في اضطرارنا الى تغييرها لم نجد انهما تغيرتا تغيراً يذكر منذ قرن او اكثر الاَّ حين قطع السلطان محمود دابر الانكشارية واستبدلهم بالنظام الذي صان السلطنة من الانقسام وحيث غيرت الحال طبقاً لما اتاهُ محمد علي الكبير ومن بعدهُ من عظيم الفعال . ثم ان عبد المجيد اصدر الخط الشريف في اواخر ١٨٣٩ قاصداً تغيير حالتنا السياسية احمد تغيير ولكن خطهُ ظل حبراً على ورق . ونهضة مدحت باشا ورفاقهِ لاستبدال حالتنا الاستبدادية بحالة دستورية افناها عبد الحميد بسياستهِ التخيلية وامراضهِ العقلية

ولا اعلم ان حالتنا السياسية تغيرت تغيراً اساَّل الله لهُ الدوام حتى تبلغ بهِ الغاية المرومة الاَّ في هذا القرن العشرين الذي يحاول الافرنج ان يسابقوا بهِ الاطيار في الهواء كما يحاول

نحن العثمانيين ان نبلغ في الارتقاء شأو الامم الحرة بعد ما وكلنا حصون انظم ومعاقل الاستبداد ونشرنا الرايات الدستورية على اعلام الاخاء والمساواة والحرية (تصفيق)

فلولا هذا التغير الحديث لولا هذه الحركة التي بدت من الامة العثمانية تنفساً لما يجيش ويهيج فيها من العوامل الداخلية لكنت اقول ولا اخشى لومة لائم ان امتنا جامدة قد تولاها الفتور والسكون فلا تتغير تغير الاحياء ولا تخطو في سبيل التقدم والارتقاء

اعتقادي الذي تميل اليه نفسي ويهواه قلبي هو ان هذه النهضة الدستورية — هذه الحركة المباركة ليست مجرد تقليد او اقتباس اخطرنا اليه بحر التمدن الغربي الطامي وسيل حضارتهم العرم بل حركة صادرة عن عوامل الحياة الادبية في الامة العثمانية وعن طول التفنيه اليها والحث والحض على الحرية فاننا اذ راجعنا مبتدأها وخبرها اعترفنا للاحرار بالفضل فيها ولم نجحدهم حقهم من الشكر عليها . لا اعرف التركية ولا الارمنية حتى كنت اقرأ ما كتبهُ احرار الترك والارمن واستقصي اخبار ما نعاوهُ لاعداد شعبيهم للدستور وتشويقهما الى الحرية . ولما اقتصر على ما فعلهُ الاحرار من ابناء اللغة العربية وخصوصاً ابناء سورية

كنت غلاماً يافعاً مبتدئاً بطلب العلم في المدرسة الكلية السورية لما كان المرحوم فتح الله مراش ينشئُ المقالات الرنانة وينظم القصائد في هجو الذين يجيشون على العرب ويحطون شأنهم ويبعث بها من باريس ليذيعها اذهان شبان سورية . وكنت شاباً في عنفوان الصبا لما كان قلم المرحوم رزق الله حسون ينثر الدرر ويرسلها الينا من لندن مغلغلة حتى لا تحول يد الجور بيننا وبينها ويحرض شبان سورية فيها على خلع نير الحكومة الاستبدادية . فهذان الحران الحليبان اللذان فاقا الاقران بحب الحرية كما فاقا بمعانيهما السحرية ومبانيهما العسجدية قضيا روحاً من الزمان وهما يرسلان شعاع الحرية الى ابناء سورية من قلب اعظم عاصمتين اشتهرتا في اوربا بالحرية والنظامات الدستورية ولكنهما مزجا بلاغتهما بعلقم التفريق بين الترك والعرب فاصابا بايقاظ النفوس لطلب الحرية واخطأا بتزييق الجامعة العثمانية

على ان كثيرين من احرار سورية النابغين يعترفون بالفضل في خدمة الحرية للمرحوم الياس بك حبالين . كان رحمهُ الله يدرس شبان سورية اللغة الفرنسوية ولكنهُ وقف جهدهُ على ارضاعهم لبان الحرية واضرام نار البغض بين ضلوعهم للسلطة الاستبدادية سياسية كانت او وطائفية . وشاركهُ في هذا الفضل رجال الشيرة الماسونية في سورية من مسلمين

ومسيحيين . فيا طالما سهروا الليالي وبذلوا الرخيص والغالي لاعداد ابناء سورية لقبول المبادىء الحرة والنظامات الدستورية

وماذا اقول عن المرحومين البستاني الكبير وابنه البكر وعن سائر الذين عاصروهما من الصحافيين والكتاب والعلماء والمؤلفين والاساتذة والمعلمين والخطباء والادباء الذين خبروا مجيء الهيئة الاجتماعية السورية بتعمير الحرية والمبادىء الدستورية فلهم كلهم في ذلك فضل لا ينكر بل لا ابالغ اذا قلت ان لهم فيه الفضل الاكبر

على ان خدمتهم كانت بطبيعة الحال اما منقطعة غير منتظمة كخدمة مراش وحسون واما محصورة ومستورة وموقتة غير دائمة كخدمة اكثر الباقين . ولم تصر هذه الحركة المباركة حركة دائمة حقيقية ثابتة وفعلية الا لما نشرت على هذا القطر رايات الحرية وامهُ احرار السوريين وغيرهم من العثمانيين وانشأوا فيه الجرائد والمطابع الحرة وفتحوا ابوابها لاقلام انصار الحرية والساعين في انارة الاذهان تارة بالكتابات العلمية وطوراً بالكتابات السياسية والادبية . ولا حاجة بي الى الجولان طويلاً في هذا الميدان فكل ما جرى معلوم عندكم كما هو معلوم عندي ولا تزال مجالسكم تتحدث الى اليوم بصبر اولئك الاحرار على اضطهاد احر من جمر النار

بعد نزول الجرائد السورية في هذا القطر الى ميدان الجهاد في سبيل الحرية باعوام غير قليلة قام اخواننا الترك الاحرار يجاهدون مثلهم ويطلبون الاصلاح كطلبهم والتجأت جماهير منهم الى هذه الديار الحرة وقد طالما اعتمدت على معونة السوريين الاحرار في تفريج كربها ورفع الضيق عنها كما تشهد ببعض ذلك كتب منهم محفوظة الى هذه الساعة

وفي خلال ذلك قام العثماني الحر الكبير المرحوم خليل غانم السوري وجرد قلمهُ لخدمة الحرية ومحق الاستبداد فكان الشريك الكبير والناصح والمشير لشريكه احمد رضى بك رئيس مجلس المبعوثان الآن فحررا جريدة مشورت معاً واداراها حركة العثمانيين الاحرار في اوربا على قدر الامكان . وقام بعد ذلك المرحوم الكواكبي فهاجم معاقل الظلم والاستبداد وبث مبادىء الحرية في البلاد وعظمت الحركة وانتشرت بتكاثر الاحرار في هذا القطر وفي امير كا حيث خدمت بعض جرائد اخواننا السوريين خدمة تذكر لهم بالشكر وتخلد لهم الفخر

واعود فاقول ان جهلي للغتين التركية والارمنية هو الذي يمنعني عن استقصاء آثار هذه الحركة المباركة بين اخواننا الترك والارمن الذين كان لمساعيهم الحسان فضل عظيم في خدمة الحرية لا يساويهِ لهم العثمانيون على مر الزمان

على اني اول معترف بالفضل لضباط الجيش العثماني في تحقيق آمالنا وانالتنا ما كنا لا

نصدق اننا نناله ولو في احلامنا فنهم الفضل الاول في ذلك بلا خلاف ولجمعيتهم الفخر الاعظم في اخراج امانينا من القوة الى الفعل . ولكن الانصاف يوجب عليَّ ان اشهد بجمعية سرية جمعت جمهوراً من نخبة الشبيبة السورية وظلت سنين تسعى الى الغاية التي ادركتها جمعية الاتحاد والترقي بعدها بنحو ثلاثين سنة ولكنها تفرقت ايدي سبا لان يد الظلم مدت اليها من جهة ولم يتيسر لها واسطة للاتصال بضباط الجيش من جهة اخرى ولو وجدت من الضباط عوناً ومجيباً كما وجدت جمعية الاتحاد والترقي لردت الى السلطنة الحرية والنظامات الدستورية بعد ما استشهد مدحت ابو الحرية بمدة يسيرة ولاغتنت الامة عن تحمل الويلات الحميدية هذه الاعوام الكثيرة

من يتذكر الاقوال التي كنت اقولها في اوائل هذه النهضة الدستورية يعلم اني كنت يومئذٍ آملاً راجياً واما الآن فاقول لكم ايها السادة بالمي خائف واجف

انا خائف ان تنقلب على هذه الحركة فتفنيها في اول عهدها وتقتلها في مهدها بما اتصفنا به من الجمود المعهود و يقائنا الدائم على ما بيننا من الانقسامات المذهبية والتعصبات الجنسية

انا خائف لاني ارى سم الفساد جعل يتخلل بجدول الاصلاح وان بعضاً من الذين حققنا الرجاء بان يكونوا دستوريين مصلحين عادوا الى اقتفاء آثار المستبدين المفسدين

انا خائف لاني ارى اقتتال على الوظائف والمناصب — لا كانت الوظائف ولا المناصب — يكاد يلهي النائبين عنا والمنوط بهم تدبير امورنا عن اصلاح حالنا و يشغلهم عن دفع الظلم عنا وعن السعي في انجاح بلادنا وترقية امتنا

انا خائف — وهنا الخوف الاعظم — لاني لا ارى في الامة اهتماماً بتأييد العناصر الصالحة في الحكومة قصد تقويم اود العناصر الفاسدة فيها

انا خائف لاني ارى كل واحد منا نحن المستقلين عن خدمة الحكومة يحسب انهُ غير مطالب باصلاح ولا بسهر ولا بسعي لخير الامة والوطن بل غيرهُ هو المطالب بذلك . واما هو فلا يطالب منهُ الاَّ الجلوس على بساط الراحة واطلاق لسانه وقلمه بالمؤاخذة والانتقاد واظهار عدم الرضى من كل امر والمناداة بعجز رجالنا وقصور حكامنا واضعاف العزائم وقطع الآمال قائلاً « فالج لا تعالج » ومظهراً الشماتة بمن لا يجاريه كما اخفق للحكومة العثمانية مسعى او كلما حادت عن جادة العدل او الصواب في عمل من اعمالها او قرار من قراراتها بدلاً من ان يضع كتفهُ تحت الحمل و يشد مع غيره لاقالة الحكومة من عثرتها ورفعها من سقطتها وردها بالحسنى الى مواطن الاعتدال والصواب

انا خائف لاني ارى معظم الذين بلغ صوت هتافهم ودعائهم وتصفيق اكفهم عنان السماء في بدء عهد الدستور وكانوا اكثر الناس اظهاراً للجذل والسرور جعلت اصواتهم تخفت وغيرتهم تضعف وعزائمهم تحل وآمالهم تزول لانهم يطلبون من الدستور المحال ويتنظرون منهُ ان يعمل المعجزات في الحال وان يخلق الامة العثمانية خلقاً جديداً فيحول تأخرها الى تقدم وانحطاطها الى ارتقاء وفساد حكومتها الى اصلاح وفقرها الى غنى وحقدها وبغضها بعضها لبعض الى حب وسلام واتفاق ووئام في عام او بعض العام . فلما لم يجعل الدستور المستحيل ممكناً ولم يصلح شيئاً بلا تعب ولا نصب ولم يجعل تركيا بمنزلة انكلترا او فرنسا في عامين قطعوا الامل وحولوا وجوههم عنهُ وعدنا نسمع كثيرين من اخواننا المسيحيين يقولون ما الدستور الأضحك على الذقون فالمسلمون يريدون ان يستعبدونا الآن كما استعبدونا في الماضي ولكن ليس جهاراً كما كانوا يفعلون بل تحت ستار حركة ادبية تخفي مقاصدهم وافعالهم عن الامم الاوربية . ونسمع كثيرين من اخواننا المسلمين يقولون ما الدستور الا حيلة لسلبنا المزايا التي امتزنا بها على غيرنا من الملل المستوطنة السلطنة العثمانية . وقس على المسلمين والمسيحيين سائر الملل من هذا القبيل . ولسنا نرى منهم سبباً لتلافي الاسباب التي يحتجون بها ولا نرى منهم من يجد يداً لجعل الدستور قوة فاعلة لا حبراً على ورق . كأن الدستور لم يوجد بمشيئة الامة وكأن لا يد للامة في تحويلهِ لنفعها بل كل شيء بمشيئة الحكومة وبامر الحكومة وبيد الحكومة كما كانت الحال في عهد عبد الحميد

ايها الاخوان ان السلطة الآن للامة لا للحكومة والمشيئة الواجبة الاتباع للامة لا للحكومة . وما الحكومة الا خادمة الامة . فان كنتم ترون ان الحكومة لا تحافظ على الدستور بل تخالفهُ فدونكم ونوابكم فان كان نوابكم لا يراعون رغبتكم ولا يجرون على مشيئتكم فما عليكم الا ان تخذلوهم وتخلوا عنهم وتعيدوا مشيئتكم ورغبتكم وتعدوا عدتكم لانتخاب من هم احق بثقتكم منهم متى آن اوان الانتخاب بعد زمان غير طويل

بمثل هذا نداوي العلة ونتوصل الى تحقيق الآمال لا بحل العزائم وقطع الآمال . فيحسن بكل منا ان يعلم انهُ اذا كنا لا نحسن القيام بنظامنا الدستوري الحالي فالعاقبة واضحة لدينا لا تحتاج الى زيادة ايضاح . العاقبة لا تكون الرجوع الى ما كنا عليهِ بل تكون هذه المرة لتقسيم السلطنة وضياع كل امل لنا في الاستقلال والاضطرار الى العيشة طول دهرنا تحت سلطة غيرنا نذوق طعم الخسف والذل كل العمر

(وهنا اطال الخطيب في تحذير جميع العثمانيين من ترك الامور حتى توصلنا الى هذه

العاقبة الوخيمة وابان ان الدستور افضل الامور للعثمانيين المسيحيين والمسلمين جميعاً لانه لا يكفل بقاء الدولة سواه واذا لم تبقَ الدولة لا سمح الله كانت العاقبة شرًّا على المسيحيين كما تكون على المسلمين ان لم تكن أشأم . لان الدول الاوربية لا تميز الآن بين المسيحيين والمسلمين كما كانت تميز في ازمان الصليبيين ولا يهمها الا قضاء مصالحها الدنيوية بقطع النظر عن كل علاقة دينية ولما فرغ من ذلك قال)

لا تنسوا ان القائمين بالحركة الاصلاحية الآن هم فئة صغيرة من احرار العثمانيين اكثرها حديث السن قليل الاختبار ولكنه امتاز بغيرته الوطنية وحميته العثمانية . فهي تحسن خدمتنا بالتأييد منا والارشاد اكثر مما تحسنها بالتنديد منا والانتقاد . وهي تقضي مصالحنا وتحقق آمالنا اذا علمت اننا نشد ازرها ونعاونها في سعيها ونتجوز عن ذلك اذا رأت منا ما يخل عزيمتها ويضعف غيرتها . وهي تزداد جرأة واقداماً اذا رأت منا اتحاداً على معاونتها واطراحاً لتعصباتنا الجنسية وانقساماتنا المذهبية . وتفقد جرأتها وشجاعتها في سبيل الاصلاح وتقضي وقتها في المداراة والاسترضاء اذا رأت منا الانقسام بعضنا على بعض والحقد بعضنا على بعض وعدم المبالاة باصلاح ولا نجاح

لست اقول ذلك دفاعاً عنها او لاني اعمى عما يراه غيري من عيوبها وانما اقول ذلك حبًّا في المصلحة العمومية ورغبة في الاستعانة بها لقضاء تلك المصلحة فاذا تعلمنا نحن ما علينا ولم نتعمل هي بعد ذلك ما علينا قمنا عليها ونزعنا مقاليد الامور من يديها والقيناها الى من يحسن تدبير امورنا واصلاح احوالنا اكثر منها

فالاتحاد اذاً ايها الاخوان الاتحاد . ليسعَ كل منا جهده في توطيد هذا البناء

اني اشبه هذه الجمعية بحجر في اساس نهضتنا الدستورية فالاتحاد الاتحاد يا جمعية الاتحاد والاحسان الاحسان يا خير العثمانيين يا جمعية الاحسان

والآن انتقل من مخاطبة اخواني العثمانيين بوجه العموم الى مخاطبة اخواني العثمانيين المتوطنين مصر بوجه الخصوص فقد اصبح لكل منا نحن العثمانيين المصريين وطنان آخر مع وطنه الاول واصبح كل منا ينظر بعين الى وطنه الاصلي وباخرى الى وطنه الحالي واصبح عليه واجبات خاصة به تقتضي سكناه لوطنه المصري القيام بها حفظاً لمقام دولته وخير امته

نحن يا اخواني ابناء دولة لها السيادة الشرعية على هذا القطر فيجب علينا ان نجعل هذه الصورة دوماً نصب عيوننا حتى اننا في سلوكنا مع غيرنا وفي اقوالنا وافعالنا تكون غايتنا حفظ هذه السيادة شامخة البنيان وطيدة الاركان لا يضعضعها دوران الزمان ولا طوارق الحدثان .

يجب علينا ان نقدر هذه السيادة قدرها فنحفظ مقامنا في هذا القطر طبقاً لما تقتضيه ونسهر على مصالحنا ونوطد مركزنا السياسي بحسن سعينا وقوة اتحادنا عالمين ان ذلك كلهُ يوطد اركان سيادة دولتنا

ارى في الاحصاء الاخير ان عدد العثمانيين في مصر ٧٠ الف نفس نصفهم من السوريين والنصف الآخر من العرب والاتراك والارمن . ولكنهم لو جروا على الاحصاء الاصح وعدوا الاروام من العثمانيين لا من اليونان وعدوا ذرية الذين اتوا مصر مع محمد علي الكبير من المصريين العثمانيين لا من المصريين الوطنيين لما قل عدد العثمانيين عن مضاعف السبعين القانونـاوى عددهم عدد جميع الاوربيين في مصر على اختلاف امهم . ولا احتال العثمانيين دون جيرانهم الاوربيين همة وعزيمة وعقلاً ومواهب طبيعية ولكن الفرق بين الفريقين كالبعد بين الثريا والثرى في نفوذ الكلمة واحترام الجانب وعزة الشأن ورفعة المقام . ولمَ ذلك ايها الاخوان لم يكون ابناء الدولة التي لها السيادة على بلاد مصر في هذه المنزلة ولمَ يكون الاوربيون الذين ليس لدولهم سيادة وليس لمعظم دولهم ظل سيادة هذه المنزلة الرفيعة

ذلك لان نوم حكومتهم واهمال دولتهم وعدم اكتراثها لمصالحهم وعدم اهتمامها بحمايتهم في عصر الظلام عصر عبد الحميد الظالم كان يضعف عزائمهم ويصغر نفوسهم ويذهب بحميتهم العثمانية ويغيبهم على دولتهم فاحتمى منهم من احتمى بالاجانب لحفظ كرامته ومعيشته ولاذ الباقون بالحكومة المحلية والقوا دلوهم في دلاء الامة المصرية فشاركوها في كل الضراء ايام ضيقها ولكنهم والحق يقال لم يشاركوها الاَّ ببعض السراء ايام فرجها

انا اذا قلت هذا الكلام فانما اقوله لانهُ هو الحق الذي لا ينكر فان الجميع حتى السنجال وسود الصحراء الكبيرة اصبحوا محبي الظهر في هذا القطر اكثر من كثيرين من العثمانيين المصريين . ولست اقول ذلك انكاراً لفضل مصر او عتباً عليها فليس في الناس من يشكر مصر اكثر مما اشكرها او من يعترف بفضلها اكثر مما اعترف بهِ او من يشهد بنشر حكومتها الرية الحرية والعدل على سكان بلادها اصرح مما اشهد . وانما اقوله لاظهر ان اللوم في ذلك كلهِ كان على دولتنا لاهمالها لنا من جهة وعلينا نحن لعدم اتحادنا وعدم اجتماع كلمتنا وعدم اهتمامنا بحقوقنا وواجباتنا من جهة اخرى

ومما يثبت صحة قولي هذا انهُ لم يكد سقوط عبد الحميد يشيع في هذا القطر ولم تكد تبرح حكمهِ الجائر تلك حتى ارتفعت منزلة العثمانيين المصريين في اعتبار الجمهور المصري وزالت شكاوي كثيرة من شكاوي العثمانيين المصريين دفعة واحدة . وايضاً حالما علم المصريون

ان دولتنا العلية الدستورية لا تفرق بين بنائهم وابنائها في عاصمتها وفي كل ناحية من نواحي سلطنتها قام بعض فضلائهم يطلبون من تلقاء انفسهم ان يزال كل فارق بين المصريين الوطنيين والمصريين العثمانيين وان يعطى المصريون العثمانيون كل حق من حقوق المصريين الوطنيين بلا تمييز ولا تفضيل . ونحن نرى الآن ان كلمة هؤلاء الافاضل من اخواننا المصريين تعلو وكلمة الذين طالما خانفوهم في هذه العواطف الشريفة تحط في اعتبار الجمهور . وظني الآن ان الوقت قد حان لان يجمع العثمانيون كلمتهم ويسعوا في تعيين مركزهم تعييناً صريحاً واضحاً في القطر المصري فإما ان يخضعوا لجميع الواجبات الوطنية ويتمتعوا بجميع الحقوق الوطنية وإما ان يعملوا على اي حالة يكونون وفي اي طريق يسيرون وهذا اقل ما يحق لهم ان ينتظروه بعد التفاهم بين حكومتهم الدستورية العثمانية وحكومتهم المصرية . وان كان دولة كبيرهم القومسير العثماني الساعي بسعي فيه وبتمه فيكون قد فعل فعلاً محموداً جليلاً يبقى تذكاره محفوظاً في نفوس ابناء الامة العثمانية (تصفيق)

هذا الوقت من احسن الاوقات للاتفاق مع الحكومة المصرية فقد زال معظم ما كان من سوء التفاهم وعلم المصريون ان العثمانيين ولاسيما احرار الترك والسوريين كانوا ولا يزالون من اصدق الناس ولاء للدولة وان اتهامهم بمعاداة الدولة كان خطاء في خطاء وانه لم يخطئ متهموهم اعظم من هذا الخطاء الا حيث لقبوهم بالدخلاء . فاين الدولة التي لها السيادة لا يكون دخيلاً وانما هو اصيل ابن اصيل حيثما حلت قدمه بلداً من بلادها (تصفيق)

لما انقسم بعض المصريين الوطنيين الى احزاب اختار كل فريق منهم ما يحلو له من الاقوال لتمييز حزبه عن حزب غيره . على ان الخارج عن احزابهم الخالي النفس من كل غرض من الاغراض المفارقة بينهم لا يجد فرقاً جوهرياً بين احزابهم واعني بذلك ان غايتهم السياسية واحدة وهي التخلص من الاحتلال والحصول على الاستقلال . فكل حزب يقول ان هذه هي غايته وما الفرق بينهم الا في الطريقة المؤدية الى هذه الغاية . فحزب يرى ان الطريقة هي اهاجة البغض في صدور الامة للمحتلين وتحريضها عليهم بكل جهد وافراط وبلا اعتدال في ذلك ولا احتياط . وحزب يرى الوصول الى هذه الغاية بالاصلاح على المبادىء الدستورية والاعتدال وحزب يرى الوصول الى هذه الغاية بجمع كلمة اعيان الامة والاعتدال وعلم جرًّا

ومما هو حقيق بالاعتبار انهُ قبل قيام هذه الاحزاب بل قبل انشاء جرائدها جلس بعض العثمانيين السوريين برأي مشهور في هذا القطر لانهُ اقدم الآراء السياسية التي لا تزال

ثابتة ولو انهُ مضى عليهِ نيف وعشرون عاماً والكتّاب يخوضون فيهِ في كل آونة . وهذا الرأي هو ان الغاية التي نتمناها كلنا — اي انقضاء الاحتلال — تنال اذا سرنا اليها في طريقها . والسير اليها في طريقها يكون بان نسعى كلنا ونجد في سبيل الاصلاح وترقية الامة بالعلوم والمعارف وترقيتها على المبادىء الوطنية القويمة . وهذه الطريق يمكن ان نختصرها كثيراً اذا حاسبنا المحتلين واستعنّا بهم على اصلاح احوالنا واكسبنا ثقتهم بنا لان القوم لا يقصدون ان يجعلوا احتلالهم دائماً بل قد وعدوا رسمياً وكرروا الوعود مراراً عديدة بانهم يجلون عن هذا القطر متى وثقوا من ان الجلاء عنهُ لا يقلب النظام فيهِ ولا يعطل مصالحهم

هذا الرأي كان في بدء الامر محل الاعتراض الكثير بحجة انهُ لا يليق مصر الاستقلال طول الدهر وانا اذا جرينا عليهِ « لم يأت الترياق من العراق حتى يكون المصوع قد فارق » ولكنا اذا تأملنا خطط الاحزاب الحالية وخصوصاً الاحزاب المعتدلة منها وجدناها مطابقة لهُ في الجوهر مهما اختلفت عنهُ في العرض

ولكن ما قولكم ايها القرّاء الكرام في احكام هذه الايام . ما قولكم في بعض رفاق لنا استأثروا الآن بجوهر هذا الرأي الذي هو من اقدم آرائنا واخرجوا اصحابهُ عن دائرة السياسة المقبولة الوطنية وجعلوهم حزباً او « فرقة احتلالية » نعم انهم لقبوهم ويا طالما لقبوهم بدخلاء احتلاليين ويا طالما عيروهم بانهم باعوا ذممهم ووطنيتهم للمحتلين . ولا ادري ان كان الناس قد نسوا اليوم او لا يزالون يتذكرون ان الواقف بين ايديكم الآن كان يلقب بشيخ الاحتلاليين بين الصحافيين ويشار اليهِ في ذلك بالبنان في كل مكان

نعم انهم لقبوني بشيخ الاحتلاليين بين الصحافيين كما لقبوا من هم اعظم مني بشيوخ الاحتلاليين بين الموظفين والوطنيين . وعيروني كما عيروهم بالانتصار للمحتلين . فان كانوا يقصدون بتلقيبي وتعييري اني اعترفت للاحتلال بالاصلاح وللمحتلين باعمال حسنة كثيرة في هذا القطر فانا على رؤوس الاشهاد احتلالي من اكبر الاحتلاليين لاني جاهرت وشهدت ولم اخف ولم انكر ان المحتلين اصلحوا في هذا القطر اصلاحاً عظيماً وانهم نشروا عليهِ ألوية العدل والحرية وانهم رفعوهُ مادياً وادبياً في امور كثيرة وان ما فعلوهُ فيهِ مدة احتلالهم لهُ كان خيراً لم وخيراً لبلدهِ . وغاية املي ومنائي انهم ما داموا محتلين لهذا القطر يديمون الاصلاح فيهِ ويساعدون اهلهُ على ترقية شؤونهم وتحسين احوالهم ولا يستبدلون هذه السياسة المفيدة الحميدة بسياسة تخالفها ظاهرها النيرة علينا وباطنها هدم ما شيدوا من صروح الاصلاح عندنا

فان كان اعترافي بهذه الحقائق هو الذي يدعوا الى تلقيبي باحتلالي فنعم اللقب وانا راض

به واما ان كان يراد بهذا اللقب اني اخون عهود دولتي واريد ان اسلب السيادة على مصر منها وتعطي للدولة البريطانية او اني احسب ان الاصلاح الذي اصلحه المحسنون في هذا القطر يعطي دولتهم حق امتلاك الديار المصرية او اني اطلب ظاهراً او باطناً ان تكون مصر جزءاً من السلطنة البريطانية بدلاً من ان تكون جزءاً من السلطنة العثمانية — ان كان احد يقصد ذلك او يظن او يتوهم شيئاً من ذلك فاني انكر قصده كل الانكار واني ظنه ووهمه بجهد القوة والاقتدار واجمع كل من يجادل في ذلك بانه يعجز عن ان يأتي بعبارة واحدة من كل ما قلته او كتبته في حياتي تخالف قولي او تثبت دعواه

وهذا الذي اتوله بالاصالة عن نفسي اقوله بالنيابة عن اخواني الذين طالما لقوا كما لقيت وعيروا كما عيرت اما لان معيريهم اخطأوا مقصدهم او لانهم لم يخطئوا مقصدهم وانما قصدوا قضاء مآربهم منهم

كان المثابرون الاحرار مشغولين عن كل شاغل في عهد عبد الحميد بمهاجمة حكومته وقلب سلطته لاراحة الامة من ظلمه فكان ذلك يشغلهم في مصر عن الاهتمام بمقام دولتهم والذود عن حقوق سلطنتهم وامتهم . واما الآن فلا ضير لنا اذا اهملنا هذا الواجب علينا ولم نجد على تأييد حقوق دولتنا وحفظ حقوقنا هنا . فاذا رمتم مني ايضاح المراد بالتفصيل من هذا القول المجمل قلت ان مرادي هو ان المسألة المصرية السياسية واعني بها مسألة جلاء الجنود الانكليزية عن الديار المصرية متوقفة على مستقبل دولتنا العلية . انا اعتقد ان الدولة الانكليزية التي يشهد التاريخ انها كانت ولا تزال اصدق الدول صداقة للدولة العلية واشدها اخلاصاً لها والتي نصرتها على اعدائها كثيراً بل انتقلتها من مخالب الهلاك مراراً — انا اعتقد ان هذه الدولة لا تقصد امتلاك مصر والبقاء فيها الى الابد بل انها متى وجدت سبيلاً مأموناً الى الجلاء عنها فعلت . وهذا الاعتقاد يزداد قوة ورسوخاً في نفسي كلما قام رجل من رجالها وكرر وعودها السابقة واكد للعالم انها باقية عليها وانها لا تخلفها . واظنكم تذكرون وما العهد ببعيد انها كررت وعودها هذه بلسان معتمدها في هذا القطر في السنة الماضية . فقد اعاد تلك الوعود باقوال صريحة لا محل للشك او للتأويل فيها وكان ذلك في حديث جرى له مع هذا الداعي ونشر على صفحات المقطم بعد عرضه عليه ومراجعته لكل كلمة منه ومصادقته على صحتها

ولا يكاد يعقل ان الدولة التي كانت اشد الدول اصراراً على حفظ العهود وتمسكاً بوجوب القيام بالوعود لما وقع اختلاف اخيراً على البوسنة والهرسك بيننا وبين النمسا حتى انها اضطرت النمسا الى حفظ المعاهدات اضطراراً تعطي العهود وتكررها وتعد الوعود وتعيدها وهي تقصد

ان تخفظها ولا تقوم بها . بل الذي يعقل هو انها مقيمة على عهودها وحافظة لوعودها وعازمة ان تقوم بها متى ايقنت ان ذلك لا يعطل مصالحها .

واذا اعملنا الفكرة قليلاً وراجعنا اقوال رجالها ادركنا انها تأمن على مصالحها متى باتت مصر في حال تؤمن معها الغارات الخارجية والثورات والفتن الداخلية وحيلولة حوائل قوية بين انكلترا واملاكها ومصالحها الشرقية . وبعبارة اخرى متى وجدت قوة مأمونة تضمن لمصر تلك الحالة . فالقوة المأمونة التي يتم بوجودها الجلاء هي اولاً الدولة العلية صاحبة السيادة الشرعية على مصر . واذا انقطع الامل منها لاسمح الله فهي الامة المصرية نفسها بعدها . ودليلي على ذلك ما يخطر ببالي الآن وهو انهُ لما قرنت الجمعية العمومية المصرية على قرار يرمي الى طلب الجلاء من مصر بعيد سنة ٨٩٤ او حواليها كان غلادستون كبير احرار الانكليز وزير انكلترا حينئذٍ فرد الطلب بما فحواهُ ان هذه المسألة من شأن الدولة التي لها السيادة على مصر . وهذا عين الحق لان مصر وحكومتها باقيتان اليوم كما كانتا قبل الاحتلال والدولة المحتلة حالة محل الدولة التي لها السيادة اكثر مما هي حالة محل غيرها . ففي عهد عبد الحميد كانت الدولة التي لها السيادة تضعف وتنحط وتحل عاماً فعاماً حتى اوشك الامل ان ينقطع منها . وقد صرح رجالها اليوم ان نقسيم السلطنة العثمانية كان في حكم المتقرر بين الدول بعد وفاة عبد الحميد لو دامت حكومتهُ . فالدولة المحتلة كانت لا ترجي عوناً عظيماً لها على الجلاء من هذه الجهة . لانهُ ان كانت الدولة العلية باتت في عهد عبد الحميد اضعف من ان تحفظ نفسها وتصون املاكها فكيف يرجى ان تذود عن مصر وتدفع عنها غوائل الغارات الخارجية والثورات الداخلية ولهذا تحولت الانظار عن الدولة العلية الى الامة المصرية نفسها واستقرت الافكار على ان الاحتلال لا بد وان يدوم حتى ترتقي الامة المصرية في المعرفة والعلم والقوة والكفاءة لتدبير امورها وتولي شؤونها بنفسها . وذلك يستغرق زماناً طويلاً طبعاً اذ ارتقاء الامم من حالة كالحالة التي كانت الامة المصرية عليها قبل الاحتلال الى الحالة التي تستطيع فيها الاستقلال في مثل هذه الظروف والاحوال لا يتم في جيل او جيلين بل لا بد ان تتعاقب عليهِ اجيال وهذه الفكرة يجدها اللبيب متخللة اقوال اللورد كرومر الذي يعدهُ الانكليز اكبر ثقاتهم في المسألة المصرية ومتخللة تقاريرهُ ايضاً من اوائل سني الاحتلال الى اول هذا العام . فقد ظهرت جلياً في مؤلف جديد له صدر بالامس حيث ذهب الى ان المنود يبقون تحت حكم الانكليز الى ما شاء الله لكثرة انقسامهم الى ملل ونحل مختلفة يخالف المصريين فانهم ينالون يوماً الاستقلال لكونهم شعباً واحداً متجانساً

غير ان انقلاب الحكومة العثمانية الاستبدادية وقيام الحكومة الدستورية على اطلالها احيا الآمال بعد موتها واعاد الرجاء بعد انقطاعه . فاذا شاء الله — كما هو رجاؤنا ودعاؤنا — ان دولتنا العلية تصير دولة حرة دستورية اركان نظامها العدل والمساواة والحرية واذا انجح الله مساعي المبذولة الآن جعلها دولة قوية منتظمة الادارة متينة المالية محترمة الجانب بقوتيها البرية والبحرية قادرة على حفظ سيادتها على مصر ووقاية مصر شر المهاجمين لها من الخارج والقائمين عليها من الداخل فلا ريب عندي ان الدولة المحتلة تقول ان الباب قد فتح لي للخروج من مصر طبقاً لعهودي ووعودي مع الاطمئنان على مصالحي فتخرج جنودها منها وتحل بذلك المسألة المصرية السياسية على يد الدولة العلية

فلهذا يهمنا نحن العثمانيين المصريين ان نؤيد كل مسعى يحقق الآمال في نجاح نظامنا الدستوري وان نبذل الجهد في توطيد مقام دولتنا في بلادنا هذه وفي زيادة ثقة الانكليز بتعاظم قوتها ومنعتها . وأن نرغب رجال الدولة العلية في زيارة هذا القطر والاهتمام باحواله والانتباه الى مصالح تبعتهم فيه وتوثيق عرى الاتحاد والالتئام بينهم وبين رجال مصر حتى يدوم اهتمامهم بمصر وبمصالح الدولة فيها . فقد احسنوا فعلاً في اكرامهم لسمو اميرنا المعظم وشد علاقات الثقة والمودة بينهُ وبينهم وعسى ان يفعلوا مثل ذلك مع رجال حكومتهِ واكابر بلادهِ قضاء لمصلحة الدولة اولاً وقضاء لمصالح رعايا الدولة في مصر ثانياً

بقي لي كلمة اقولها عن اهل وطني واخواني السوريين الذين قلت ان عددهم في هذا القطر يبلغ نصف عدد جميع العثمانيين فيهِ . فانا واثق اني نطقت بلسان حال هؤلاء الخمسة والثلاثين الفاً حيث قلت انهُ ليس في الناس من يعترف بفضل مصر ويشكرها عليهِ اكثر مما اعترف انا بهِ واشكرها عليهِ . ولكن هذا القول الحق المنقوش على لوح ذهني من الجهة الواحدة يقابلهُ قول آخر حق منقوش على لوح ذهني من الجهة الاخرى . وهو ان هؤلاء السوريين اول من يحق لهُ بين القادمين الى مصر ان يعترف لهُ اهلها الوطنيون بحق السواء وان يوثقوا بينهم وبينهُ عرى الاخاء . احول نظري بمنةٍ ويسرةٍ في هذا القطر واحصي اعمال السوريين واستقصي عن اشغالهم فاجد جلهم ان لم اقل كلهم جادّين في اعمال كلها شريفة ودائبين في اشغال كلها نافعة للهيئة الاجتماعية . اجد الثلثين في المئة منهم او اكثر اصحاب متاجر واهل صناعات وحرف وزراعات . اجد نسبة ارباب الاقلام ورجال العلم والادب والتهذيب والتعليم ذكوراً واناثاً منهم الى مجموع عددهم اعظم من اي نسبة كانت مثلها لاي شعب كان في هذا القطر . ابحث عن عدد الذين يؤخذون منهم بجرائم وامور مغايرة

للقانون فاجد نسبتهُ الى عددهم اصغر من اي نسبة كانت لاي فئة كانت من الفئات المستوطنة مصر

وزد على ذلك انهم تحصروا وشاركوا الوطنيين في امورهم واحوالهم اكثر من كل من جاء بلادهم . وانهم في طليعة المصريين الساعين في مناظرة الغربيين وحفظ التجارة والصناعة والزراعة بايدي المصريين بدلاً من ان تنحصر كلها في ايدي الاوربيين وقد تمت فيهم كل الشرائط التي تستفيد منها البلاد من المهاجرين اليها لانهم يبقون كل ما يكسبونهُ بجدهم وكدهم وعرق جبينهم في هذا القطر ولا يخرجون يدوهم منهُ الى الخارج . فبينما نجد السوريين المهاجرين الى اميركا وغيرها يعودون منها بالمال الكثير ويعمرون بها سهول سورية وجبالها لا نجد سورياً واحداً خرج بثروة من هذا القطر الى سورية او بذل جانباً يذكر من الاموال التي كسبها من مصر خارج الديار المصرية بل نجد عكس ذلك وهو ان كثيرين من اكبر الموسرين السوريين جاؤوا باموالهم الطائلة من سورية وفتحوا بها متاجر ومصانع وابتاعوا بها عقارات واطياناً في الديار المصرية . هذا مع ما هو مشهور عن تعلقهم بالعائلة المحمدية العلوية وعن احترام جمهورهم لسلطة الحكومة المحلية وخضوعهم للقوانين المصرية واستيطانهم لمصر منذ ازمان طويلة . فالشعب الذي يكون هذا شأنهُ في وطنهِ الثاني يحق لهُ ان يؤمل من حكومتهِ كل ما يؤملهُ منها ابناؤها الوطنيون وان ينشط من العقال الذي عقل به منذ ١٨ سنة وهو عقال الخمس عشرة سنة

على انا لا ننسى على كل حال اننا ابناء تلك الامة التي تشهد بطيب عنصرها وحسن خلالها وعزة نفسها بقاع سورية وجبال لبنان ومروج فلسطين وبلاد حوران بل نعقد العزائم ونجمع الهمم على حفظ شرف عنصرنا ورفع منزلتنا في اعتبار غيرنا بجعل اقوالنا وافعالنا كلها مطابقة للفضائل بعيدة عن الرذائل . وان نخدم مصلحة امتنا ودولتنا ونحفظ مستقبل الخير لاولادنا بعدنا بالتحادنا على تأييد المبادىء الدستورية وعلى اعانة الساعين من رجال دولتنا في نشر لواء العدل والحرية . وان نغار على خير مصر وطننا الحالي كما نغار على خير سورية وطننا الاصلي وان نحافظ على صدق الولاء لجلالة سلطاننا الاعظم وسمو خديوينا المعظم وان نكون عوناً لاخواننا الوطنيين على كل ما يرقي الوطن المصري ويرفع شأن الامة المصرية . واعود فارجع الكلام الى هذه الجمعية التي يفتخر بها ابناء سورية قائلاً الاتحاد يا جمعية الاتحاد والاحسان يا جمعية الاحسان حتى يشمر شذا فضلك من ضفاف النيل الى قم لبنان

هذا ولا يجد الخطيب بدًّا من شكر حضرات السامعين والمكاتبين فقد قلدوهُ منةً وجميلاً بما قابلوا بهِ اقوالهُ من حسن الاصغاء مع ما تفضلوا بهِ من التصفيق وإظهار الامتنان والاطراء

(وكانت الجمعية قد وزعت قانونها وكشفاً باسماء اعضائها في ابتداء جلستها فلما اطلع عليهما وسمع خطبة حضرة الرئيس وتقرير حضرة السكرتير استهل الخطبة بذكر الجمعية فقال)

اتيت طنطا وانا احسب اني الق فيها جمعية عثمانية صغيرة وجمعاً يسيراً تكفيهِ خطبة قصيرة ولم يدر في خلدي اني اقف لاخطب في مثل هذا المحفل الحافل او ان الق جمعية ضمت تحت لوائها ١٥٥ رجلاً من نخبة ابناء سورية او ان اسمع عن افعالها الحسان الدالة على صدق غيرتها العثمانية وحبها للخير والاحسان ما سمعتهُ من فم حضرة رئيسها وما شرحهُ لنا حضرة سكرتيرها فلقد اذكرتني هذه الجمعية ما قالهُ بعض شعراء الانكليز في وصف البنفسج الذي قال فيهِ الشاعر السوري الشهير

فتح البنفسج مقلةً مكحولة غمز الهزار بها فقام وغردا

وانما ذكرتني هذه الجمعية قول الشاعر الانكليزي في البنفسج لانهُ لا يصف مقلتهُ المكحولة بل يصف عنقهُ المنحنية وارجهُ الذي يعطر الارجاء فيبحث من يشم طيب عطرهِ عنهُ في جميع البقاع ويحسب انهُ اولى الازهار بالشاغ والارتفاع ثم يجدهُ منحنياً بين الاعشاب منحني العنق مطأطئ الرأس مثال الانضاع . وهذه الجمعية تعمل اعمالها الخيرية والوطنية في اخفاء فتنشر مسك فضلها ولا يكاد احد من الخارجين عن طنطا يعلم بامرها مع انها احق الجمعيات بان يفتخر السوريون بها وان يقتفوا اثرها ويتسجوا على منوالها . جزاها الله خيراً على حسن فعالها ووفق كل السوريين في طنطا الى الاتحاد على توطيد اركانها وتوسيع دائرة فضلها وبسط كف السخاء في اعانتها حتى لا نسمع ان ايرادانها قصرت يوماً عن احسانها

وغاية ما اقول ان هذه الجمعية ترجب لسوريي طنطا الفخر فعسى ان لا يضيعوا هذا الفخر وان اتحادهم على تقويتها احسن قدوة لغيرهم من ابناء سورية في هذا القطر فعسى ان يظلوا قدوة في الاتحاد . وآخر رجاء ارفعهُ الى اعضاء جمعية الاتحاد هو حفظ الاتحاد والاتفاق